الصراع الدولى حول فلسطين
فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر حتى صدور وعد بلفور

للدكتور عز الدين فوده

أستاذ العلوم السياسة بجامعة القاهرة
ومن الأساتذة المحاضرين فى المعهد

تتناول هذه الدراسة، بالبحث والتحليل، الصراع بين الدول الكبرى؛ روسيا وفرنسا وألمانيا وانجلترا، حول الأراضى المقدسة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، والدور الذى لعبته الدبلوماسية الصهيونية فى هذا المضمار من أجل عودة اليهود إلى فلسطين وإنشاء الوطن اليهودى فيها. وقد عمدنا ألا نتناول خلال هذه الفترة الظروف والأحداث التى أدت إلى حرب القرم وعقد مؤتمر باريس سنة ١٨٥٦، وكذلك الظروف والأحداث التى أدت إلى الحرب الروسية التركية وعقد مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨، على الرغم من الصلة الوثيقة لهاتين الحربين وهذين المؤتمرين بالمسألة الشرقية ومشكلة الأماكن المقدسة، ولكننا آثرنا تحليل الدبلوماسية الأوربية فى هذا الصدد فى دراسة خاصة. هذا وإن استدعى البحث فى هذا المقال الإشارة إلى هذين المؤتمرين، أو الرجوع إلى عناصر التناقض والمنافسة بين الدول الكبرى فى فترة زمنية لاحقة من عصر الحملة البونابرتية على مصر أو الوجود المصرى على عهد محمد على فى الشام وفلسطين.

* * *

أخذت الأحداث التى توالت على الأراضى المقدسة منذ الحملة البونابرتية فى الشرق، والوجود المصرى فى سوريا وفلسطين، تخرج بالبلاد المقدسة من ميدان الحياة المغلقة والصراع المحدود بين الحماية الفرنسية للاتين من جانب، وحماية روسيا القيصرية للروم الأرثوذكس من جانب آخر، إلى ميدان تتصارع فيه كل القوى الكبرى من أجل النفوذ السياسى فى بداية عصر الإمبريالية

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES

والتطور الصناعى والتوسع الاقتصادى للإمبراطوريات . فمنذ سنة ١٨٤١ على وجه التحديد ، توجهت سياسات الدول الكبرى نحو الأماكن المقدسة وجهة جديدة ، وظهر اهتمامها بالمركز الاستراتيجى الحيوى لفلسطين على طريق التجارة والاتصال بين الشرق والغرب ، وإمكانية استغلال الحركة الدينية والنزعات الطائفية فى ركاب المصالح الاستعمارية . فمن المعروف أن فلسطين ليست بلاد تجارة أو صناعة ، وأنه لم يكن لفرنسا أو روسيا أو غيرهما كألمانيا وبريطانيا أغراض اقتصادية أو رعايا من مواطنيها ذوى أهمية بها . ولكن منذ وجود القوات المصرية بها ، وتهديدها للقسطنطينية ، وظهور روح البعث العربى فى هذه المنطقة ذات الأهمية للمواصلات العالمية ، وقد أخذت الأهمية السياسية والاستراتيجية للبلاد المقدسة تلعب بأجفان الدول الكبرى التى توالت فى إنشاء القنصليات ببيت المقدس ، حيث ازداد النشاط الدينى والسياسى ازدياداً أقلق الأرض المقدسة .

ففى سنة ١٨٣٨ أنشأت انجلترا قنصلية لها فى القدس برئاسة المستر « يانج » W. T. Young ، بغرض تأييد الدولة العلية ضد أطماع « محمد على » وأفكاره التوسعية فى بلاد الشام . واستهدفت انجلترا من ذلك ، فى نفس الوقت ، مقاومة السياسة الفرنسية فى سيطرتها على خطوط المواصلات الإمبراطورية ، وهى السياسة التى فتحت أعينها عليها منذ قدوم بونابرت إلى مصر وفلسطين ، كما أظهرتها سياسة فرنسا فى تأييد محمد على وإضعاف الدولة العثمانية . ومن المعروف أنه لم يكن لبريطانيا وكنيستها الإنجيلية أية حقوق أو مصالح تدعيها فى علاقتها بالأماكن المقدسة ، وأن قيام الأسقفية المتحدة لانجلترا وإيرلند وبروسيا لأول مرة بمدينة القدس سنة ١٨٤١ لم يجد سبباً أو طريقاً سوى السعى إلى التوفيق بين المذاهب المسيحية المتنوعة والقيام بأعمال التبشير للمذهب الإنجيلى بين اليهود والمسلمين والطوائف المسيحية الأخرى . ولهذا ما لبثت بريطانيا على عهد « بالمرستون » أن عمدت إلى ادعاء قيام قنصليتها بحماية اليهود ، تجاه الحماية الفرنسية للاتين والكاثوليك ، والحماية الروسية للروم والأرثوذكس(١) .

---

(١) انظر عارف العارف ، المسيحية فى القدس ، ص ١٥٣–١٥٥ ، ص١٦٨–١٧١ .

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES
عضو اتحاد الجامعات العربية

وما لبثت هذه الحماية البريطانيـة التى ادعتها بريطانيا لنفسهـا فى نفس الحقبة على يهود حلب والشام وسالونيك، أن امتدت لتشمل بعد ذلك (؟ !) الأرمن، وحماية من قبلوا الدعوة الإنجيلية من مسيحيي الطوائف الأخرى والإرساليـات البروتستانتية التى قامت فى المنـاطق المحيطة بالخليج العربى منذ إنشائها على عهد الهولنديين(١) .

وإثر جلاء القوات المصرية المتحالفة معفرنسا عن فلسطين، سارعت السياسة الفرنسية والنشـاط الكاثوليكى إلى تأكيد نفوذهما بالبلاد المقدسة ، بأن أنشأت فرنسا قنصلية لها بالقدس سنة ١٨٤١ ادعت حماية اللاتين وجميع الـكاثوليك ، على الرغم من أنه لم يكن يوجد من الإرساليات والجاليـات اللاتينية الأجنبية بفلسطين سوى الرهبان الفرنسسكان(٢) . وفى سنة ١٨٤٧ عين البابا بيوس التاسع أول بطريرك لاتينى بمدينـة القدس فى شخص Mgr. Valerga ، وهو منصب لم يكن له وجود فعلى من قبل(٣) وكذلك أخذت الكنيسة الـكاثوليكية تشجع على هجرة الجاليات والإرساليات الكاثوليكية من شتى الأمم إلى الأماكن المقدسة للإقامة بها . وفى نفس الفترة ، ازداد النشـاط الكاثوليكى فى سوريا ولبنان ، وانتشرت الجمعيـات الخيرية التى أخذت تباشر الدعاية السياسية تحت حماية القناصل الفرنسيين ، كما أنشأت فرنسا عدداً كبيراً من المدارس والكليات والمستشفيات فى كافة أنحاء فلسطين والشام(٤) .

وغنى عن البيان أن روسيا القيصرية ما لبثت تنظر إلى هذه السياسة بعين القلق ، وما فتئت تسعى لقطع خط الرجعة على النفوذ الفرنسى الـكاثوليكى ، خاصة وأن عدد الأرثوذكس من الجاليـات الأجنبية والوطنية يزيد عن عدد اللاتين والكاثوليك ، وأن روسيا التى نفخت فى روح الأرثوذكسية وادعت حماية جميع الكنائس الشرقية قد أصبحت تتمتع بعطف الوطنيين من أبنائها، وتباشر سلطاناً غير مباشر على الأرمن والسريان والقبط والأحباش(٥) .

---

(١) René Pinon, L'Europe et L' Empire Ottoman, Paris 1909 P. 566

(٢) Isabelle Eberhardt, La Russie en Palestine, Paris 1951. PP. 9, 54- 95

(٣) Ibid, P. 9

(٤) Ibid, PP. 53. 54. 67. 68.

(٥) Ibid, PP. 15, 17, 67.

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES
معهد البحوث والدراسات العربية
عضو اتحاد الجامعات العربية

وهكذا فإن روسيا ، على الرغم مما لحق بها من هزيمة فى ميدان القتال ، وعلى الرغم من إعلانها على لسان مندوبها فى مؤتمر باريس تنازلها عن فكرة الحماية وقبولها بعد ذلك مسألة بحث المشكلة فى إطار الاتفاق الأوروبى ، لم تعد تتخلى عن متابعة مساعيها الدبلوماسية فى الأراضى المقدسة ، وظل الروم الأرثوذكس لا ينقطعون عن مباشرة نشاطهم بتشجيع من الروسيا فى هذه الأماكن . ففى سنة ١٨٤٧ تكونت بروسيا على سبيل المثال الجمعية الروسية بفلسطين ، وهى التى تحولت سنة ١٨٩٣ إلى الجمعية القيصرية الأرثوذكسية بفلسطين ، وقامت هذه الجمعية — التى أنشئت باسم رعاية شئون الحجاج والبعثات الدينية وتيسير أماكن الإقامة وطرق الانتقال بالأماكن المقدسة — بكثير من الأعمال الدعائية لخدمة النفوذ القيصرى الروسى بالمنطقة . ونشطت هذه الجمعية بصفة خاصة تحت رئاسة الأمير سيرج شقيق القيصر اسكندر الثالث فى أعقاب حرب القرم ، حيث أنشأت شركة للملاحة والنقل إلى فلسطين ومكتباً لهذا الغرض بأوديسا ، كما قامت بإنشاء عدد كبير من الجمعيات الخيرية والمدارس والمستشفيات فى القدس والناصرة وحوران ودمشق ، ومدرسة للطب ببيروت(١) . وزادت الحكومة الروسية على ذلك بأن أرسلت غداة معاهدة باريس (فى يناير سنة ١٨٥٧) بعثة برئاسة موظف روسى كبير M. Boris De Mansouroff لدراسة الأوضاع بالأماكن المقدسة وتقوية روح الأرثوذكس المقيمين بها . كذلك أرسلت الحكومة الروسية بعثة دينية أخرى فى فبراير سنة ١٨٥٨ ، قامت بشراء الأراضى وإنشاء المبانى والمؤسسات فى ضواحى المدينة المقدسة ، لإقامة الإرساليات واستقبال الحجاج الروس(٢) . وأصبحت الجمعية الروسية تباشر إشرافها على جميع هذه المؤسسات الروسية بالمدينة المقدسة ، حتى أصبح نشاطها يعتبر بحق مقدمة للنفوذ الروسى بالمنطقة . فاللغة الروسية قد أصبحت شائعة بين الأرثوذكس ، كما أصبح السعى إلى توحيد الكنيستين الروسية والحبشية الذى استهدفته بعثة روسيا إلى الحبشة سنة ١٨٩٧

---

(١) Ibid, pp. 54—59, 67-73

(٢) Ibid, pp. 80-81

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES
عضو اتحاد الجامعات العربية

وبعثة النجاشى إلى روسيا سنة ١٨٩٥ ، إحدى خطوات هـذه السياسة التى استهدفت نفوذ القيصرية إلى قلب أفريقيا(١) .

وما لبثت روسيا أن عدلت عن تدعيم قنصليتهـا بدمشق من أجل الإشراف على رعاية مصالحها بالقدس، كما عكفت عن إرسال قنصلها العام ببيروت للتدخل فى الخلافات الطائفية بالمدينـة المقدسة بين الحين والحين (كما فعلت فى حادث النجم الفضى سنة ١٨٤٧) وأنشأت فى سنة ١٨٥٨ قنصليـة لها ببيت المقدس ، وعينت M. Dorgaboujinoff أول من قام برئاستها(٢) .

وبقى راسخاً فى الأذهان من النـاحية الفعلية أن روسيا ما زالت حاميـة الأرثوذكسية ، بينما نضب معين هذه الحماية من جانب فرنسا للكاثوليك بصفة عامة، نتيجة معارضة الدول الكبرى والدول الكاثوليكية الأخرى لها، أو نتيجة أن فرنسا لم تعد ترغب فى منافسة حليفتها روسيا وأصبحت منذ سنة ١٨٩١ وقبل قيام هذا التحالف (٤ يناير سنة ١٨٩٤) تتفادى أى صراع علنى حول الأماكن المقدسة كلما أمكن ذلك(٣) ، أو نتيجة الخلاف الذى نشأ بين فرنسا الجمهورية والفاتيكان بسبب سياسة فصل الدين عن الدولة والقوانين التى أصدرتهـا فرنسا ضد المجمع المقدس .

فمنذ معاهدة برلين سنة ١٨٧٨ أخذت الدول الكبرى ، بدافع رغبتها فى التوسع بمصر وفلسطين وسوريا ، تعارض مبدأ الحماية الفرنسية للكاثوليك من أية جنسـية أو حراسة مؤسساتهم فى الأماكن المقدسة وغيرها ، استناداً إلى نص المـادة ٢٢ الذى يشيع هذا الحق بين جميع الدول المنضمة إلى المعاهدة كما أوضحنـا . ولم يبق على فـكرة الحماية الفرنسية لغير رعايا فرنسـا ، من الكاثوليك الوطنيين (من رعايا الدولة العثمانيـة كما درج العرف عملا بالتسـاهل العثمانى) ، والكاثوليك اللاتين (من رعايا إيطاليا وفقاً للمعاهدات وصكوك الامتيازات السـابقة) سوى مساندة البابا لفرنسـا فى هذا المضمار . فإثر مؤتمر

---

(١) Ibid, pp. 103

(٢) Ibid, pp. 83-84

(٣) Ibid, p. 27 ; Collin, p. 59

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES
عضو اتحاد الجامعات العربية

برلين بعث القاصد الرسولى بباريس إلى وادنجتون وزير الخارجية الفرنسية برسالة تأييد وشكر رسمى من الكرسى الرسولى لدفاعه عن الحماية الفعلية لفرنسا للمصالح الكاثوليكية بالشرق .

وفى ٢٢ مايوسنة ١٨٨٦ أصدر البابا ليو الثالث عشر أمراً إلى جميع الكاثوليك بالخضوع للحماية الفرنسية والاعتراف بها للوكلاء والقناصل الفرنسيين(١) .

كذلك اعترف الفاتيكان بالحماية الفرنسية للكاثوليك فى البلاد التابعة للدولة العلية وفى الصين إثر أزمة سنة ١٨٨٨ التى أثارها وزير ألمانيا بالصين وادعائه حماية ألمانيا لرعاياها من الكاثوليك . وزاد على ذلك الفاتيكان بأن أكد حقوق فرنسا فى الحماية الكاثوليكية فى مواجهة سياسة التوسع الألمانى فى الشرق ، التى اقتضت استغلال الكاثوليكية ونزع الحماية من فرنسا لصالح ألمانيا ، لدى رحلة الإمبراطور غليوم الثانى إلى الأماكن المقدسة فى خريف سنة ١٨٩٨(٢) .

وهكذا ، فعلى الرغم من أن الحماية الفرنسية للكاثوليكية لم تعد من الأهمية والقوة كما كانت من قبل ، إلا أن مساندة البابا لها قد أبقت عليها حيناً من الدهر فى مواجهة ألمانيا اللوثرية وبريطانيا البروتستانتية وإيطاليا المتنازعة مع الفاتيكان منذ سنة ١٨٧٠ . ولكن منذ أن جنحت فرنسا إلى التزام سياسة فصل الدين عن الدولة ، أصدرت القوانين المختلفة ضد المجمع المقدس ، وأنشأت المدارس والمعاهد العلمانية ، وظهرت داخل البرلمان الفرنسى الاتجاهات المؤيدة لقومية الكنيسة فى فرنسا ، وانتهى الأمر إلى قطع العلاقات الدبلوماسية بين فرنسا والفاتيكان ، ولم يعد البابا يذهب مذهبه الأول فى تأييد الحماية الفرنسية ومساندة مصالحها . بل أصبح الفاتيكان يفرق بين الحماية الفرنسية للأماكن المقدسة ، وبين حماية الأشخاص ، التى اعترف بحق كل دولة فيها بالنسبة لرعاياها كما قيل من قبل فى صدد نصوص معاهدة برلين سنة ١٨٧٨(٣) .

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES

(١) René Pinon, L'Europe et L'Empire Ottoman, Paris, 1909, pp. 554,556

(٢) Ibid, pp. 553-558.

(٣) Ibid, pp. 559, 561-564.

وهكذا سنحت الفرصة لإيطاليا على عهد Crispi بالاتفاق مع بسمارك أن تسعى إلى الإقلال من النفوذ الفرنسى فى الشرق ، ومنافستها فى تونس ، ومعارضة فكرة الحماية الفرنسية على اللاتين من رعايا إيطاليا ، مؤيدة فى ذلك من كنيسة ميلانو وبعض رعاياها من رجال الدين فى الأماكن المقدسة(١) .

كذلك تهيأ لكل من ألمانيا وانجلترا اللوثريتين أن ينافسا النفوذ الفرنسى والتسلل الروسى إلى فلسطين وأن يعارضا مبدأ الحماية التقليدية ، حتى قيض لها أن يلعبا فى هذا المضمار دوراً خطيراً فى السباق الدولى حول إنشاء دولة يهودية فى البلاد المقدسة .

وقد أخذت ألمانيا على عاتقها زمام المبادرة فى حمل لواء هذه المعارضة ، تدعيما منها لسياستها الشرقية الجديدة وحملتها الرأسمالية فى الدولة العثمانية .

وظهرت بوادر هذه السياسة الجدية ، لدى تخلى بسمارك عن مستشارية الدولة . فقد عارض بسمارك توسع المصالح الاقتصادية الألمانية فى الدولة العثمانية ، تجنباً لمشاكل المسألة الشرقية وتوتر العلاقات مع روسيا حتى لايؤدى الأمر إلى فساد مساعى ألمانيا فى عزل فرنسا . ولذلك عارض زيارة غليوم الثانى غداة توليه الحكم للقسطنطينية سنة ١٨٨٩ ما استطاع . فلما تخلى بسمارك عن رئاسة الحكومة صفا الجو للقيصر الطموح فى تعويض ألمانيا عما أصابها من خسائر فى ميدان الاستعمار من جراء سياسة بسمارك ، وأن يصبح لها نصيب من التفسخ العثمانى الذى أفسح مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ الطريق إليه فى مقرراته ومناقشاته ، وإن كانت السياسة الألمانية ترى المحافظة على الولاء الصريح نحو السلطان نفعاً فى هذا الصراع أكثر مما تنفعها سياسة الاحتلال وتقطيع الأوصال التى انتهجتها روسيا من قبل ، وبريطانيا فى ذلك الحين ، باحتلال قبرص سنة ١٨٧٨ ومصر سنة ١٨٨٢(٢) .

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES

---

(١) Ibid, pp. 554, 561.

(٢) Edward Meed Earle, Turkey, The Great Powers and The Bagdad Railway, New York, 1924, pp. 41, 123-127.

ودشنت هذه السياسة برحلة الإمبراطور غليوم الثانى إلى الآستانة والقدس الشريف فى خريف سنة ١٨٩٨ . ووقف حزب الكاثوليك الوسط صاحب الأغلبية الكاثوليكية فى الرايشستاغ يؤيد سياسة غليوم الثانى ويطلب إلى البابا تأييده ضد مبدأ الحماية الفرنسية للاتين والكاثوليك(١) . وكان استقبال الإمبراطور فى الآستانة استقبالا يفوق حد الوصف ، كما كانت رحلته إلى بيت المقدس رحلة طريفة تولى فيها القيصر إعداد طعامه بنفسه على نحو ما يفعل الحجاج . بل كان دخوله إلى البيت المقدس غريباً فى بابه ، إذ دخل إليه من ثغرة فى الجدار كانت من آثار الفتح التركى . وهناك كرس القيصر الألمانى الكنيسة الجرمانية الإنجيلية ، ورفع العلم الإمبراطورى على جبل صهيون ، ومنح الكنيسة الكاثوليكية « أرضاً مباركة » كما زار قبر صلاح الدين فى دمشق ، وختم الزيارة بخطاب وجهه إلى المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها يؤكد لهم فيه إخلاصه لهم وصداقته الحميمة لخليفتهم . ولم تخف مقاصد هذه الرحلة على رجال السياسة ، فقد أحسوا بما وراءها من مطامع استعمارية ، وتحالف تركى ألمانى ، يحل ألمانيا محل بريطانيا ومركزها القديم فى الدولة العثمانية . فقد كانت هذه الرحلة فاتحة الحملة الرأسمالية الألمانية على الدولة العثمانية التى أمها عدد كبير من حملة لواء الاستعمار الألمان من التجار والماليين والمبشرين ، وحلت فيها المصانع الألمانية محل المصانع الفرنسية والانجليزية فى تجهيز الجيش التركى بالمعدات الحربية ، وأنشىء فى أعقابها البنك الفلسطينى الألمانى الذى فتح فروعاً له فى بيروت ودمشق وطرابلس الشام ونابلس والناصرة والقدس وغزة وحيفا ويافا ، وأصبح مشروع خط سكة حديد بغداد الذى يصل ما بين برلين واستنبول والخليج العربى بما يحمل من تهديد للمصالح الروسية الاقتصادية والمصالح الاستعمارية البريطانية برهاناً ساطعاً على تقدم النفوذ الألمانى لدى الباب العالى(٢) .

ولكن الأهم ما ارتبطت به هذه الرحلة من جملة المظاهر الاستعمارية من علاقة

---

(١) Pinon, Op., Cit., p. 558.

(٢) أنظر فى هذا الشأن ، على طريق الهند ، رسائل الأهالى ، بغداد ، ١٩٣٥ ، ص ٩١ — ١٣٢ .

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES

وثيقة بالحركة الصهيونية فى مهدها . فقد أخذ زعماء الصهيونية يرنون ببصرهم إلى الثقة التى أصبح السلطان عبد الحميد يوليها ألمانيا . تلك التى أثبتت حتى ذلك الحين صدق نواياها تجاه الباب العالى ، على خلاف روسيا التى ناصبت المسلمين العداء فى أفغانستان وإيران وكانت العدو اللدود للسلطان، وبريطانيا التى أصبحت تحكم ماينوف على سبعين مليوناً من المسلمين فى الهند واحتلت قبرص ثم اغتصبت مصر وأخذت تقتص البلاد الواقعة على الخليج العربى ، وكذلك فرنسا التى فرضت حمايتها على تونس ومراكش واتخذت من دعوى حماية الكاثوليك وسيلة لبسط نفوذها على سوريا ولبنان وفلسطين(١) . وكان زعماء الصهيونية وكتابها منذ منتصف القرن التاسع عشر قد أخذوا يحلمون باستيطان فلسطين وإنشاء الدولة اليهودية فى أرض كنعان وعلى ضفاف الجليل حتى يعود التاريخ اليهودى سيرته الأولى (٢) . وبدأت بالفعل مشروعات تنظيم الهجرة اليهودية الأوروبية برعاية الاتحاد الإسرائيلى العالمى الذى ترأسه Carles Netter منذ سنة ١٨٧٠ ، حيث أنشئت بالقرب من يافا مدرسة للزراعة تقوم على تدريب المهاجرين على إنشاء المزارع وإعمارها . ثم ساعد البارون أدموند دى روتشيلد على إنشاء المستعمرات الخمس الأولى وتدعيمها سنة ١٨٨٣(٣) .

وعلى الرغم من أن هرزل عندما عكف على كتابه «الدولة اليهودية» فى باريس فى صيف سنة ١٨٩٥ ، قد عنى بإثارة المسألة من زاوية سياسية بحتة قصد لفت نظر الضمير العالمى المتدن إلى قضية خلاص اليهود من الاضطهاد المعادى للسامية ، فهو لم يحدد مكاناً معيناً لإنشاء هذه الدولة ، سواء فى ذلك الأرجنتين التى أخذ يشجع على الهجرة إليها البارون دى هيرش اليهودى ، أو فلسطين التى لم يكن يتتبع — حتى ذلك الحين — ما كتبه سلفاه بصدد استعمارها واستيطان اليهود لها ، وإنما ترك اختيار المكان الملائم للجمعية السياسية التى اقترح تشكيلها لبحث هذا الموضوع .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

(٢) أنظر عرضاً موجزاً لهذه الكتابات والمجهودات فى Jaques Soustelle, La Longue Marche d'Israel, Fayard, 1968, pp. 22-25

(٣) Ibid, p. 25.

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES

غير أنه مالبث لدى عودته إلى فينا فى ختام سنة ١٨٩٥ أن أخذ يفكر فى إمكانية التأثير على السلطان من خلال ثقته بالإمبراطور غليوم الثانى ، وأخذ يدير الحديث فى مقابلاته مع المستشارين العسكريين للإمبراطور، ومع دوق بادن عم غليوم الثانى ، حول فلسطين . فقد نظم له وليم هيشلر ، راعى السفارة البريطانية بفينا ومعلم أبناء الدوق أول مقابلة له مع دوق بادن فى أبريل سنة ١٨٩٦ . واقتنع الدوق بوجهة نظر هرزل فى وجوب عودة اليهود إلى فلسطين ، حسب وعد الأنبياء الذى يعتقد به المذهب الإنجليكانى فى ألمانيا وانجلترا ، وأخذ يعمل على ترتيب مقابلة له مع الإمبراطور، هذه المقابلة التى لم تتيسر حتى زيارة غليوم للقسطنطينية والأرض المقدسة سنة ١٨٩٨(١) .

وفى خلال هذه الفترة كان هرزل يسعى إلى ترتيب مقابلة أخرى بينه وبين السلطان عبدالحميد . ففى سنة ١٨٩٦ استطاع بوساطة النبيل البولندى Nevlinskis أن يقابل الصدر الأعظم رفعت باشا ، وأن يتوسط له داود افندى لدى وزير الخارجية منير باشا ، ولكنه لم يستطع أن يحظى بمقابلة السلطان ، على الرغم مما عرضه فى هذه المقابلات والاتصالات من عهود ووعود بالمساعدة المالية للسلطان فى وقت أصبحت فيه الخزانة العثمانية مرهقة بالديون ، نظير السماح ببيع بعض أراضى فلسطين لاستيطان المهاجرين اليهود عليها(٢) .

وهكذا عاد هرزل من رحلته الأولى إلى القسطنطينية صفر اليدين . ولكنه فى عودته تلك عرج على جموع يهود صوفيا الذين التفوا حوله يطلبون الخلاص والهجرة . ومن صوفيا رحل إلى باريس حيث نجح فى إقناع البارون ادموند دى روتشيلد بفكرة التوطن الجماعى فى فلسطين ، كما فشل بالتالى فى لندن فى إقناع ممثلى جماعة أحباء صهيون بوجهة نظره . ومن ثم عاد إلى فينا داعياً باسم يهود صوفيا إلى تأسيس الحركة الصهيونية ومجلة Die welt وانعقاد المؤتمر الصهيونى الكبير من ممثلين للشعب اليهودى فى جميع أنحاء العالم ، وهو المؤتمر

---

(١) Ibid, pp. 30-32.

(٢) Ibid, pp. 32-33.

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES
عضو اتحاد الجامعات العربية

الذى تم انعقاده لأول مرة فى بازل فى ٢٧ أغسطس سنة ١٨٩٧ لمدة ثلاثة أيام بحضور ٢٠٤ مندوب يهودى يعتنقون مختلف العقائد ويتكلمون شتى اللغات(١) .

وخلال انعقاد المؤتمر ، ومن نتائج أعماله ومقرراته ، ولا سيما فيما يتعلق بإنشاء بنك لتمويل عمليات استيطان فلسطين ، والحصول من تركيا والدول الأوروبية على وعد بإنشاء وطن Foyer للشعب اليهودى فى فلسطين، تأكد لدى هرزل أن تنفيذ هذه المقررات رهن بالاعتماد على ألمانيا فى علاقتها مع الدولة العلية العثمانية(٢) . وهنا لاحت له فكرة إنشاء الوطن القومى اليهودى تحت الحماية الألمانية ، لا سيما وأن الإمبراطور غليوم الثانى كان ولوعاً بالنزعة الاستعمارية فى بلدان الشرق الأدنى والأماكن المقدسة ، وأخذ يسخر لها أفواج المبشرين والبعثات الدينية والمدارس والمستشفيات فى القدس وغيرها ، وتأسست فى عام ١٨٩٦ جمعية البعثة الألمانية إلى الشرق ومجلتها فى برلين للبحث والدراسة فى الشئون الشرقية(٣) .

وتحرك هرزل لتوثيق صلاته بفريق الاستعماريين الألمان، الكونت ايلنبورج، سفير ألمانيا فى فيينا ، وفون بيلو وزير الخارجية ومستشار الرايخ الكونت هوهنله ، تمهيداً لأول مقابلة له مع الإمبراطور فى القسطنطينية فى ١٧ أكتوبر سنة ١٨٩٨ التى شرح فيها برنامج الصهيونية ووعدها بإنشاء الوطن القومى اليهودى تحت الحماية الألمانية . ولم يقطع القيصر لهرزل وعداً فى هذا السبيل ، بل أمهله فى مفاتحة السلطان ، ولكنه — على حد رواية ايلنبورج — قد أصبح متحمساً لفكرة توطين اليهود فى الأراضى المقدسة(٤) .

وما لبث هرزل أن سبق غليوم الثانى إلى فلسطين لدى زيارته لها فى نفس العام مصطحباً معه صديقه القديم الراعى هيشلر ودافيد ولفسون، ووقف ذات صباح ينتظر قدوم الإمبراطور على صهوة جواد وببزته الرسمية لزيارة

---

(١) Ibid, p. 33.

(٢) Ibid, p. 35.

(٣) الطريق إلى الهند ، ص ٩٥ ، ٩٦ .

(٤) Soustelle, Op., Cit., p. 35.

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES
معهد اتحاد الجامعات العربية

المستعمرات اليهودية ومدرسة الزراعة قرب يافا . ثم ما لبث غليوم الثانى أن استقبل الوفد الصهيونى مرة أخرى فى القدس . حيث قدم إليه هرزل مذكرة بمطالب الحركة الصهيونية مؤكداً احترامها لسيادة الباب العالى ، كما أصدر وزير الخارجية فون بيلو بياناً يعرب فيه عن عطف الإمبراطور على برنامج التقدم الزراعى بفلسطين ، شريطة ألا يجحف ذلك بحقوق السيادة العثمانية(١) .

ومن المؤكد أنه قام خلال هذه المقابلات لقاء فى وجهتى النظر الصهيونية والألمانية حول الأغراض السياسية لكل منهما فى الأراضى المقدسة . وأن رجال الحركة الصهيونية من الألمان قد نشطوا خلال ذلك فى معاضدة الاستعمار الألمانى بانشاء عدد من المستعمرات الزراعية فى القدس وحيفا(٢) . كما ساعدت الحكومة الألمانية من جانبها الحركة الصهيونية بتشجيع البيوت المالية مثل ، Bleishoder Hirsch, Mendelson وعلى تمويل المشروعات الصهيونية للإقامة بفلسطين(٣) .

ولكن الدبلوماسية التى أفهمت لدى عودة غليوم الثانى إلى القسطنطينية أن الدولة العلية لاتفرط قيد أنملة فى حقوق أهل فلسطين الشرعيين ببيع الأراضى، لم تشأ أن تضحى علناً بعلاقات الصداقة مع الدولة العثمانية ومصالحها الاقتصادية فى بلادها من أجل مشكلة زائدة التعقيد حول الحماية الألمانية للهجرة اليهودية(٤) . وبقيت فكرة التحالف الصهيونى الجرمانى تضمرها ألمانيا سراً ، خشية غضب الباب العالى من جانب ، وإزاء تبدل موقف بريطانيا من السياسة الألمانية فى الدولة العثمانية ومشروع خط حديد بغداد ابتداء من سنة ١٩٠٣ من جانب آخر . فقد كانت فكرة الحماية الألمانية للوطن اليهودى فى فلسطين، تعنى قيام قاعدة ألمانية على خليج العقبة ومدخل البحر الأحمر بما يهدد مركزها فى قناة السويس ويزعزع سيادتها على البحار وسيطرتها على خطوط المواصلات العالمية إلى الإمبراطورية .

---

(١) Ibid, p. 36.

(٢) الطريق إلى الهند ص ٩٦ .

(٣) Pierre D'Istria, De Suez Akoba, Les Editions Cujas, Paris, 1968, p. 45

(٤) Soustelle, Op. Cit., p. 36.

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES

وليس يعنينا فى هذا المقام أن نتتبع ما لاقاه هرزل من صدمة عنيفة إزاء عدم تقدم جهوده الحثيثة ، وما كان من لجوئه مرة أخرى إلى مخاطبة الباب العالى مباشرة فى كتاب منه إلى الصدر الأعظم فى ١١ مارس سنة ١٨٩٩ ، وما انطوت عليه هذه الاتصالات المباشرة من تهديدات منظورة لتركيا إن لم تقبل عروض الصداقة والمساعدة اليهودية ، وما كان من أمر سعيه لدى نورى بك وزير الخارجية التركية لدى انعقاد مؤتمر السلام فى لاهاى سنة ١٨٩٩ ، ومحاولة رشوته لقاء تنظيم مقابلة له مع السلطان ، حتى استطاع أن يمثل فى حضرة السلطان بالفعل فى شهر مايو سنة ١٩٠١ عن طريق وساطة أرمنيوس فاميرى المغامر الهنغارى اليهودى الأصل الذى تزوج من أميرة عثمانية ووثق علاقاته بالباب العالى(١) .

ولكن الذى يعنينا فى هذا المقام أنه ابتداء من هذه الفترة قامت العلاقة الوثيقة بين الدبلوماسية الصهيونية وخليج العقبة فى تاريخ الصراع الإمبريالى حول إمبراطورية السويس الاستراتيجية — كما يسمونها — والتى تبدأ من جزر كوريا موريا فى جنوب مسقط وعمان حتى قبرص فى شرق البحر المتوسط ، وتشمل الخليج العربى وشمال العراق ، فى منطقة تنبض بشرايين البترول وتشكل الأراضى المقدسة مركزاً من مراكز الصراع الحيوية فى منتصفها . وأصبحت خريطة الشرق الأوسط ومركز الأماكن المقدسة منها محل تفكير عميق من جانب القوى الكبرى ، ولا سيما بريطانيا وألمانيا ، والدبلوماسية الصهيونية التى أصبحت وشيكة الدخول لتلعب دورها الكبير فى نطاق الاعتبارات الاستراتيجية والمصالح الاقتصادية السياسية . وأصبح إنشاء مشروع مولتكه وإقامة المستعمرات الزراعية فى القدس وحيفا سنة ١٨٧٠ باشراف كريستوف هوفمان ، ثم التفكير فى الحماية الألمانية للوطن اليهودى مقدمة هذا الدور الخطير فى حياة الشرق الأوسط والأراضى المقدسة وشمال البحر الأحمر بذراعيه — خليج العقبة ومنطقة السويس — بصفة خاصة .

---

(١) Soustelle, Op. Cit., pp. 36, 37; D'Istria, Op. cit., p. 44.

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES
معهد البحوث والدراسات العربية
جامعة الدول العربية

فالاعتبارات السياسية والاقتصادية هى التى أصبحت تقود الحركة الصهيونية فى تحالفها مع ألمانيا ، ثم انجلترا ، وأخيراً الولايات المتحدة، لاتبوءات التوراة . وأصبح إمكان تحقيق قاعدة استراتيجية صهيونية إلى جوار قناة السويس ، تخدم أهداف القوى الأجنبية فى التأثير على أهميتها الإقليمية ودورها السياسى والسيطرة على منابع وشرايين البترول التى تجاورها ، هى قانون الجغرافية الدقيق الذى قاد المصالح الأجنبيـة من قبل فى صراعها حول الأماكن المقدسة ومداخل البحر الأحمر والخليج العربى .

ولم تكن ألمانيا فى حقيقة الأمر أول من أبصر أهمية اليهود فى الشرق، أو أهمية خليج العقبة فى علاقات الشرق الأوسط وتأثيره على مصير قناة السويس . ولكن ألمانيا القيصرية كانت أول من حالفته الصهيونية كحركة ، وأول من سعى إلى تحقيق تخطيط الدبلوماسية الصهيونية حول الأهمية الاستراتيجية للوطن اليهودى فى الأراضى المقدسة .

أما بريطانيا فلم تغفل عن هذه الحقائق كلها لأحقاب خلت . ويمكن ترسم هذه الخطى من جانب السياسة البريطانية على النحو الآتى :

١ ـ تبدأ هذه الخطوات بسعى فرنسا فى أواخر القرن الثامن عشر إلى ولوج البحر الأحمر عن طريق التحالف مع مصر وعقد المعاهدات السياسية والتجارية مع بكواتها المماليك دون الاكتراث بالباب العالى ، فى وقت كانت الدولة العثمانية فيه مهددة بالانهيار من كل جانب . فأسطول أورلوف Orloff الروسى يتجول بحرية فى بحر ايجة، فى الوقت الذى استأنف فيه كريم خان القتال بفارس ، وأصبحت سوريا وفلسطين فى قبضة المترددين أحمد الجزار والشيخ ضاهر العمر ، والمماليك فى مصر يتنازعون السلطة دون اكتراث بتبعيتهم لتركيا حتى أصبح الفرنسيون يرون فى استقلالهم الفعلى أو احتـلال فرنسا لمصر مصلحة لهم(١) .

---

(١) Edmond Rabbath, Mer Rouge et Golf d'Aqaba dans l'evolution du Droit International, Societe Egyptienne de Droit International, Janvier, 1962, pp. 19-20.

وقد حاولت انجلترا نفسها بالفعل الانتفاع بحسن نوايا على بك الكبير فى التحالف معها ، وعقدت معه اتفاقية سنة ١٧٧٣ تفتح مرفأ السويس لمراكبهم ، حتى أصبح العلم البريطانى أول الأعلام الأجنبية التى رفرفت فى البحر الأحمر ، بعد أن كان بحيرة إسلامية مغلقة فى وجه النصارى من الأجانب حماية للأماكن المقدسة فى الحجاز والتجارة العربية بصفة عامة . وقد عاود الانجليز نفس المحاولة مع محمد بك أبو الذهب بعقد معاهدة سنة ١٧٧٥ لنقل البضائع من السويس إلى الطور بضمان حاكم القاهرة ، ثم مع مراد بك وابراهيم بك لضمان مرور قوافل تجارتهم من السويس إلى القاهرة . لكن الباب العالى قد أظهر من القوة فى كل مرة ما مكنه من الاعتراض على هذه الاتفاقيات التى تتنافى والمبادىء المقدسة للدولة العثمانية فى حماية البحر الأحمر من الغرباء ، حتى وعد البلاط الانجليزى السلطان بالامتثال لهذه الأوامر والمبادىء(١) .

ولكن بريطانيا التى درجت سياستها على المحافظة على الدولة العثمانية والحيلولة دون تقسيمها بين الطامعين فى ذلك الوقت ، قد أقلقتها محاولات الفرنسيين فى هذا الصدد . فقد استطاع الفرنسيون أن يحصلوا من مراد بك على معاهدات للتبادل التجارى وتجارة الترانزيت التى من شأنها أن تفتح البحر الأحمر للمراكب الفرنسية ، والتى أثارت مخاوف وحسد شركة الهند ، كما أثارت اعتراض الباب العالى والأوساط الإسلامية . وتتابعت خطط فرنسا لغزو مصر وشق قناة فى أراضيها للسيطرة على البحر ، وهى المخصصات التى أبداها البارون دى توت De Tott عندما نصح السلطان سنة ١٧٧٧ بتنفيذ مشروع وصل البحرين عند برزخ السويس ، ثم حرص لويس الرابع عشر على احتلال مصر نفسها ، ثم تناولتها الأبحاث والمذكرات تباعاً ولا سيما مشروع فولنى Volney المنشور سنة ١٧٨٨ فى مؤلفه «بعض اللمحات عن حروب الروس والأتراك» . وقد تمخضت هذه الأبحاث والمشروع عن نتائج ظهرت إبان الثورة الفرنسية عندما طالب التجار من أهل مرسيليا المقيمين فى القاهرة مجلس الأمة الفرنسى فى أول سبتمبر سنة ١٧٩٠ بحمايتهم من طغيان بكوات المماليك وحماية التجارة الفرنسية

---

(١) Ibid, pp. 20-21.

عن طريق الأسطول الفرنسى ، وتأكدت فى حملة بونابرت التى قامت بمشروع الغزو الذى بحثه من قبل لويس الخامس عشر ، وأجله لويس السادس عشر(١) .

٢ ــ كانت حملة بونابرت فى مطلع القرن التاسع عشر فاتحة الصراع العلنى بين انجلترا وفرنسا حول برزخ السويس وقطع طريق بريطانيا إلى البنغال عبر الشرق الأوسط ، كما كانت فاتحة التطلع الصهيونى نحو استعمار فلسطين إذا صدقنا الرواية الشائعة بأن نابليون قد أصدر سنة ١٧٩٩ بياناً رسمياً يدعو فيه يهود آسيا وأفريقيا أن يهرعوا تحت رايته إلى دخول أورشليم وإعادة بناء الهيكل(٢) . وفى رأى البعض أن نداء نابليون المقول عنه قد هدف إلى تجنيد فرق من يهود حلب لمساعدته على فتح فلسطين والوقوف إلى جانبه ضد بريطانيا ، ولكن نداءه لم يلق استجابة من اليهود الذين ظلوا على إخلاصهم للدولة العثمانية وحماية بريطانيا لهم فى أراضيها على النحو المنوه عنه آنفاً . ولكن مهما قيل فى صدد هذا النداء وانعدام أثره من الناحية الفعلية ، فقد ظلت الدعاية اليهودية تشير إليه بمثابة الاعتراف الأوروبى بحقوق اليهود فى الأرض المقدسة ، وبداية التعاون بين الحكومات الأوروبية واليهود على حساب العرب(٣) .

والواقع أنه لا بدع فى أن يفكر نابليون فى القوة اليهودية فى أوروبا ؛ لا فى المشرق وحده ؛ قبل حملته على مصر وفلسطين ، وأن يساوم اليهود على تبادل المنفعة من وراء تلك الحملة . فنابليون الكبير كان من الخبراء والحذاق بصناعة الحكم ، وكان على علم بديهى بأطوار الجماعات ومصادر النفوذ فى الرأى العام ، وكان من أجل هذا عظيم العناية بعوامل النفوذ الأجنبى اليهودى فى فرنسا وفى البلاد التى يتطلع إليها . فهو يستفيد من أموالهم إذا ضنت به خزانة

---

(١) Ibid, pp. 22-23.

(٢) يرى البعض أن هذا النداء قد نشر فى صحيفة Gazette Nationale كما يذكر البعض الآخر أن البيان نشر فى صحيفة Moniteur الرسمية فى عدد ٢٧ مايو سنة ١٧٩٩ . انظر فى هذا الشأن عباس محمود العقاد « الصهيونية العالمية » ، القاهرة ١٩٦٨ ص ٦٩ وأنيس صايغ « الهاشميون وقضية فلسطين » ، بيروت ١٩٦٦ ، ص ١٢ .

(٣) S.W. Baron, A Social and Religious History of the Jews, Columbia University Press, 1937, Vol. 2, p. 329.

الدولة ، وهو يستفيد من نفوذهم ودعايتهم فى تأييد حملاته العسكرية ومقاومة النفوذ السياسى أو المالى الذى يعوق حركتها(١) .

ولكن الجدير بالذكر أن بريطانيا ما لبثت أن فتحت عينيها على التخطيط الفرنسى المزدوج فى التعاون بين فرنسا واليهود من جانب ، وفى التحالف مع العرب ووعدهم بتخليصهم من ربقة السيطرة العثمانية . بل ما لبثت بريطانيا أن ورثت هذا التخطيط الذى أصبح فيما بعد ، إلى جانب المخطط الألمانى فى الوجود على خليج العقبة للتأثير على مركز قناة السويس من أعمدة سياستها فى الشرق الأوسط . بل مالبثت مساندة فرنسا لاستقلال مصر فى عهد محمد على ، وحملة إبراهيم باشا على فلسطين والشام ، وسياسته التوسعية على حساب الدولة العثمانية فى الجزيرة العربية ، أن أثارت الروتين البريطانى فى المحافظة على الدولة العثمانية . واستغلت بريطانيا هذه الظروف لاحتلال عدن وجزيرة بريم فى مدخل البحر الأحمر بموافقة الباب العالى سنة ١٨٣٩ ، ثم أرخبيل كوريا موريا فى جنوب ظفار بتنازل من سلطان مسقط سنة ١٨٥٤(٢) . وتحالفت بريطانيا مع روسيا وبروسيا والنمسا فى سبيل إعادة الشام وفلسطين إلى الدولة العلية سنة ١٨٤٠ ، وفتحها ميداناً للنفوذ والصراع بين الدول صاحبة الأطماع فى مركزها الجغرافى

---

(١) من الشائع أيضاً أنه قبل هذا البيان بسنة واحدة نشر اليهود فى باريس دعوة للاجتماع بها ، والاتفاق مع الحكومة الفرنسية إلى رد الصهيونية لوطنها ، وذكروا أن هذا الوطن يشمل الوجه البحرى من القطر المصرى ، مضافاً إليه إقليم يحده خط من عكا إلى البحر الميت ، وخط من جنوب البحر الميت إلى البحر الأحمر وأنهم باستيلائهم على هذه المملكة يسيطرون على تجارة الهند وبلاد العرب وأفريقية الشرقية والجنوبية . وأن مجاورة هذه الدولة لحلب ودمشق تيسر لهم السيطرة على طرق التجارة مع البلاد الفارسية ، وتفتح لهم من طريق البحر المتوسط أسواق أسبانيا وفرنسا وسائر أنحاء القارة الأوروبية . وتصبح هذه الدولة فى مركزها الوسط من العالم مستودع المحاصيل العالمية ، فتنمح فرنسا — فى مقابل المعونة على رد اليهود إلى وطنهم وحمايتهم فيه — جزاء مالياً وافياً ، وحصة كبيرة من التجارة وأرباحها . وقد نشرت هذه الدعوة بتفاصيلها فى كتاب سوكولوف عن تاريخ الصهيونية من سنة ١٦٠٠ إلى سنة ١٩١٨ .

(٢) أصبحت بريطانيا منذ ذلك الحين تنفرد بالنفوذ والحقوق السياسية المختلفة فى حضرموت ولحج وزيلع وبربرة وسوقطرة ، وكذلك فى إمارات الخليج العربى منذ ظهور البترول فى فارس وإنشاء الشركة البريطانية الفارسية للبترول سنة ١٨٧٢ . ومن أظهر اتفاقيات السيطرة البريطانية الاتفاقية التى عقدت من الكويت فى ٢٣ يناير ١٨٩٩ .

الممتاز(١) . وأخذت الدول الكبرى منذ ذلك الحين تتنافس حول حماية الأماكن المقدسة والرهبان والأقليات ، وفتح المدارس وإقامة الكنائس والبعثات والمستشفيات ، وإنشاء القنصليات ، فى حرب صليبية غير مسلحة على النحو الذى أوضحناه .

٣ ــ وكانت انجلترا منذ وجود إبراهيم باشا فى فلسطين والشام قد أخذت تعمل دون قيام دولة عربية كبرى أو فتية تحالف غريمتها فرنسا ، أو تقطع عليها طرق مواصلاتها البرية والبحرية إلى الشرق(٢) . واستندت انجلترا فى ذلك إلى إثارة الفتن وثورات الأقليات وإمدادها بالسلاح والتأييد السياسى ، إلى جانب تدخل أسطولها على صعيد القتال. فقد عمدت انجلترا إلى المبالغة فى شأن الأضرار التى لحقت باليهود فى حصار القدس وصفد أثناء فتنة يونية ١٨٣٤ ، بتحريض من جون فارين J. Farren قنصلها العام فى سوريا وفلسطين ، والكولونيل كامبل Patrick Campbell قنصلها العام فى مصر ، وذلك على الرغم مما تشهد به التواريخ والتقارير الأجنبية واليهودية على حد سواء من حسن معاملة الحكم المصرى فى ذلك الوقت للطائفة اليهودية فى مصر وفلسطين والشام ، وتحقيق المساواة بينها وبين الطوائف الأخرى فى الحقوق السياسية والمدنية (٣) . وقد وضح فى مقابلة إبراهيم باشا للكولونيل كامبل بحضور قناصل الدول الأخرى فى ١٩ يوليو سنة ١٨٣٧ ، فى صدد الاحتجاج بشأن اليهود ، أن مسلك أبناء الطائفة اليهودية فى قبول الحماية البريطانية أو تعيينهم فى مناصب قناصل الشرف أو نواب قناصل لبعض الدول الأخرى الأجنبية كان مما يسيء إلى مركز هذه الطائفة فى الأراضى المقدسة ومصر والشام ، ويستهدف تعزيز التدخل البريطانى فى المسألة الشرقية(٤) .

---

(١) انظر فى هذا الشأن : Palestine, A study of Jewish, Arab and British Policies, Published for the ESCO Foundation for Palestine, New Haven 1949, p.3; William R. Polk, The Opening of South Lebanon, L 788-1840, *Harverd* University Press, 1936, pp. 197-198.

(٢) Polk, Ibid, p. 196.

(٣) أنظر فى هذا الشأن : Asad J. Rustum, The Roual Archieves of Egypt and The Disturbances in Palestine, 1834, Beirut, 1938, pp. 60-63, Maurice Fargeon, Les Juifs en Egypte, Le Caire 1938, p. 165.

(٤) Fargeon, Ibid, p. 166.

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES

وقد راق لبريطانيا فى نفس الوقت أن تعمل على تأليب الأقليات المارونية والدرزية ضد الحكم المصرى فى جبال سوريا ولبنان وفلسطين منذ سنة ١٨٣٥ ، حتى شملت الثورات وحروب العصابات أرجاء مختلفة فى حوران ودير القمر والسهل الساحلى . وأرغمت القوات المصرية على الاندحار بعد قصف بيروت ، وإخلاء القرى والمواقع الحصينة التى أخذت القوات التركية والبريطانية المتحالفة فى احتلالها منذ أوائل أكتوبر سنة ١٨٤٠(١) .

ولقد لعب التناقض والصراع الدينى والسياسى بين الطائفة المارونية والدروز دوره فى أن يبقى المارون على عهدهم وولائهم السياسى لفرنسا . وفى سبيل حصول الدروز على امتيازات مماثلة استظلوا بظل بريطانيا وحمايتها فى أعقاب عودة الحكم العثمانى إلى الشام وفلسطين(٢) . ومع ذلك فقد ظل لليهود مركزهم الخاص وأهميتهم التى لم تسقط فى أعين الانجليز والفرنسيين .

٤ — غير أن الانجليز كانوا يرون فى شأن عودة اليهود إلى فلسطين وجهة نظر خاصة بسبب الفكرة الشائعة بين انجيليى بريطانيا بأن اليهود هم شعب الله المختار ، وأن الله قد وعدهم أرض فلسطين ، وأن مجىء المسيح الثانى لا يتحقق إلا بعودتهم إلى فلسطين وقيام « اسرائيل » .

ولم يكن هذا الاعتقاد الدينى هو المحرك الفعلى الذى دعا عدداً من ساسة الانجليز وقساوستهم وكتابهم إلى تبنى فكرة الوطن اليهودى فى فلسطين ، ولكنها ظروف داخلية فى بريطانيا نفسها ، واعتبارات تتعلق بسياستها الخارجية فى الشرق الأوسط ، هى التى دعت إلى تبنى بريطانيا فكرة عودة اليهود إلى فلسطين ، والإلحاح على روسيا القيصرية بأن تسمح بهجرة اليهود الروس إلى الأراضى المقدسة ، وأن تظهر عطفها وحمايتها على كل يهود الشرق .

فمن ناحية ، أخذ اليهود منذ طردهم بالجملة من بريطانيا سنة ١٢٩٠ ، يفدون إليها بالجملة مرة أخرى على عهد كرمويل سنة ١٦٥٠ ، ورحلت أفواج أخرى

---

(١) Polk, Op. Cit., pp. 198-212.

(٢) Ibid, pp. 217-223.

من اليهود الذين تكتلوا فى فرنسا والأراضى الواطئة (بعد إقصائهم وتشريدهم من أسبانيا والبرتغال على عهد فرديناند وإيزابيلا سنة ١٤٩٢) إلى انجلترا مرة أخرى ، إثر عودة الملكية إلى فرنسا فى أعقاب الثورة الفرنسية ، وامتهان اليهود فيها مرة أخرى . وازدادت أعداد اليهود فى انجلترا إثر الاضطهاد الروسى ، وقيام الجمعيات الإنجليزية - اليهودية بالعمل على استقبالهم وتوطينهم فى بريطانيا أو تهجيرهم إلى الأرجنتين وغيرها من البلاد الأمريكية برعاية اللورد دى روتشيلد والسيرموسى دى منتفيور. وقام صراع داخل الرأى العام البريطانى هو مطالب اليهود فى التجنس ورغبتهم فى استصدار القوانين من أجل المساواة فى الحقوق السياسية والمدنية مع أبناء البلاد الأصليين(١) .

فقد تأثر عدد كبير من كتاب الإنجليز وقادة الرأى فيهم ، مسيحيين ويهود ، بالاعتبارات الإنسانية السالفة الذكر ، وبكتابات الانسكلوبيديين من فلاسفة وأدباء فرنسيين أمثال الفريد دى موسيه فى الدعوة إلى مساواة اليهود ، ابتداء بكمبرلاند Richard Cumberland فى التراجيديا الكوميدية «اليهودى The Jew» مروراً بإيزاك ديزرائيلى وابنه بنيامين دزرائيلى رئيس الوزراء والكاتب والروائى الذى كتب David Alroy و Coningsby و Tonered للدفاع عن الشعب اليهودى ومحنته وإمكانية اندماجه فى الحياة الإنجليزية(٢) ، ثم كتابات مارى آن إيفانز المرأة المسيحية التى عرفت باسم جورج اليوت وتأثرت بكتابات دزرائيلى ونشرت فى الدفاع عن اليهود روايات اعتبرت لدى هرزل وماكس نوردو بمثابة مقدمة أدبية للصهيونية السياسية ، أهمها Daniel Derond و The Modern Hep, Hep,(٣) .

وتلتها كتابات عديدة لموسى هيس وإسرائيل زانجفيل الذى أسرف فى الدعاية لآلام اليهود خلال كتاباته المتتالية Ghetto Tragedies(1893) و They that walk in darkness(1898) و Dreamers of the Ghetto(1900) و The Mothle of Elyah

---

(١) أنظر فى هذا الشأن : Théo-Doedalus, L'Angleterre Juive, Israel chez John Bull, Paris-Bruxelles, 1913, pp. 147, 174.

(٢) Ibid, pp. 80, 183-184.

(٣) Ibid, pp. 89-90.

(٤) Ibid, p. 93.

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES
معهد البحوث والدراسات العربية
عضو اتحاد الجامعات العربية

(1907) Ghetto Comedies, (1900) ومن خلال هذه الكتابات وغيرها أصبحت الشخصية اليهودية تستهوى فكر الإنجليز وعواطفهم ، فظهرت كتابات أخرى تؤيد هذه النزعة كرواية Hall Caine عن حياة المسلمين واليهود فى مراكش باسم The Secapegoat ، أو تعارضها وتستقل برأيها كرواية Arnold White عن المجتمع اليهودى المنعزل The Modern Jew .

ولكن الأدب الإنجليزى يشهد مع ذلك ، وخلال تاريخه الطويل ، موقفاً آخر من اليهود ، ابتداء بشوسر فى Canterbury Tales ، ومروراً بكريستوفر مارلو فى The Rich Jew of Malta ، وشكسبير فى تاجر البندقية ، وشريدان فى The School of Scandal ، ووالتر سكوت فى Ivanoe ، وشالز ديكنز فى أوليفر تويست ، وانتهاء بأرنولد هوايت فى روايته المشار إليها(١) .

وقد رافق هذا الصراع فى الفكر الانجليزى صراع مماثل لدى الرأى العام على الصعيد السياسى إزاء مطالبة اليهود بالحقوق المدنية والسياسية والمساواة مع غيرهم من المواطنين فى شغل الوظائف العامة ، فى العشرينات من القرن التاسع عشر . وقدم إلى البرلمان البريطانى سنة ١٨٣٠ مشروع قانون من هـذا القبيل ، ووافق على المشروع مجلس العموم ، ورفضه مجلس اللوردات مرتين على التوالى سنة ١٨٣٣ وسنة ١٨٣٤(٢). وعلى الرغم من أن اليهود قد استطاعوا أن يحصلوا على حق تولى عمادة المدن وممارسة أعمال البلديات بمقتضى قانون سنة ١٨٣٥ Sheriff's Declaration فقد ظل مجلس اللوردات البريطانى يعارض استصدار القوانين الخاصة بالحقوق والوظائف السياسية الكبرى Religions Opinions Relief Bill حتى سنة ١٨٤٦ . ذلك أن يهود بريطانيا قد شددوا من حملتهم بزعامة الثرى اليهودى موسى منتيفور عمدة لندن السابق وحامى يهود الشرق المعروف ، إثر تولى الملكة فيكتوريا العرش سنة ١٨٣٧ . وقد أشيع فى ذلك الوقت أن الملكة فيكتوريا كانت تمالىء اليهود لأنها تمت بنسبها إلى أسرة يهودية . فقد نشرت مجلة Black and white سنة ١٩٠١ أن دوقة كنت ، أم الملكة

---

(١) Ibid, pp. 68-92.

(٢) Ibid, p. 175.

فيكتوريا ، تنتمى بأمها إلى أسرة يهودية باسم Sealfeld فى منطقة ساكس، وأن ملامح الملك إدوارد كانت تشهد بأصله اليهودى. وهكذا استطاع موسى منتيفور بتأثير ونفوذ الملكة فيكتوريا ، أن يحصل لليهود على المساواة فى الحقوق المدنية والوظائف السياسية ، ما عدا بعض المناصب المعينة كمنصب وزير المالية ومنصب نائب الملك فى المستعمرات . . الخ . وبهذا أمكن للبارون ليونيل دى روتشيلد أن ينتخب عضوا بمجلس العموم سنة ١٨٤٧ ، الأمر الذى أثار ثائرة مجلس اللوردات حيث لا يستطيع هذا اليهودى أن يقسم اليمين المعتاد : One the true faith of a Christian وصاح فى هذا الصدد أعضاء مجلس اللوردات صيحتهم المشهورة "No Jews" وطالبوا بإلغاء الحقوق اللائحية السابقة مرة أخرى سنة ١٨٤٨ ، حتى تمكن رئيس الوزراء اللورد جون راسل من التدخل لإنقاذ صديقه ليونيل دى روتشيلد ، وأجيز لعضو البرلمان اليهودى أن يقسم اليمين على العهد القديم سنة ١٨٥١(١) .

هذه الصورة من صور الصراع الفكرى والسياسى لدى الرأى العام البريطانى حول حقوق اليهود ومواطنتهم ، واضحة الدلالة فى أن الدعوة إلى عودتهم إلى الأرض المقدسة كانت تلقى ترحيباً وتأييداً من قبل أقسام الرأى العام فى بريطانيا على اختلافها .

ومن ناحية أخرى ، عزز من هذه الدعوة إلى الوطن اليهودى فى فلسطين لدى بريطانيا ، أنه لم يكن للإنجيليين الإنجليز مصالح حقيقية فى الأماكن المقدسة ذات الأهمية الاستراتيجية والجغرافية الخطيرة على مصالح بريطانيا ، مثلما هو الحال بالنسبة لفرنسا الكاثوليكية أو روسيا الأرثوذكسية . فأصبحت الدبلوماسية الانجليزية تسعى إلى أن تتخذ من حمايتها لليهود فى تلك الأراضى وغيرها من بلاد الدولة العثمانية تكأة إلى التدخل فى شئونها . وساعد على تبرير ذلك كثير من جغرافيى الانجليز اليهود ورحالتهم ودبلوماسييهم . وما زال الدور الذى لعبه الدبلوماسى البريطانى اليهودى دافيد ايركهارت David Urquhart فى تاريخ المسألة

---

(١) Ibid, pp. 176-180.

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES
عضو اتحاد الجامعات العربية

الشرقية وفلسطين ، وعلاقاته الوثيقة ببالمرسون والملك هنرى الرابع خلال عمله تحت إمرة السفير Ponsonly بالقسطنطينية أمراً جديراً بالدراسة والبحث(١). كذلك أصبحت زيارة درزائيلى للشرق الأدنى ودوره فى مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ من أجل المساواة فى الحقوق بين سكان ولايات الدانوب المكونة لرومانيا بأعدادها الكبيرة من اليهود ، ثم دوره فى الحصول على أسهم قناة السويس سنة ١٨٧٥ واحتلال قبرص باتفاقية ٢٦ مايو سنة ١٨٧٨ . ومحاولته شراء سيادة الباب العالى على مصر وأن تعوض انجلترا الدولة العلية عن الجزية التى تقوم مصر بدفعها سنوياً(٢) ، هى البرنامج العملى لنقل فلسطين إلى السيطرة البريطانية من أجل تهويدها ، وتملك مفتاح الطرق البرية والبحرية إلى الشرق .

٥ ــ هذا ترسخ لدى السياسة البريطانية فكرة التدخل فى الأراضى المقدسة باسم حماية اليهود والدعوة إلى عودتهم إلى فلسطين فى ظل الحماية البريطانية . وأصبح تدبير هذه السياسة مخرجاً من صراع داخلى فى بريطانيا نفسها حول حقوق اليهود ومطالبهم فى التجنس والهجرة اليها ، كما أصبح دوراً عملياً تؤديه السياسة البريطانية بالاشتراك مع الدبلوماسية اليهودية على طريق الهند .

وتحددت بذلك الظروف والأهداف التى أنشأ بالمرستون من أجلها قنصلية بريطانية فى القدس سنة ١٨٣٨ لتأييد أمانى اليهود فى فلسطين وإمكانية إقامة وطن يهودى فيها بحماية بريطانيا . وقد كافح فى سبيل تحقيق ذلك طويلا الايرل شافتسبرى (لورد آشلى فيما بعد) ، الذى أخذ على عاتقه مهمة إقناع بالمرستون فى ضوء الاعتقاد الدينى بوجوب عودة اليهود إلى فلسطين . وتقدم الايرل شافتسبرى بمشروعه فى هذا الصدد إلى بالمرستون للمرة الأخيرة فى صيف سنة ١٨٣٨ ، فلاقت الفكرة حينئذ تأييداً من وزير الخارجية البريطانى الذى بدأ تنفيذها بتعيين وليم يونج أول قنصل لبريطانيا فى القدس(٣) . وقد حدد

---

(١) أنظر فى هذا الشأن البحث الخاص بايركهاردت فى Sir Charles Webester
The Art and Practice of Diplomacy, London, 1961, pp. 197-225.

(٢) أنظر الوثائق الألمانية الملحقة بمؤلف دكتور محمد مصطفى صفوت ، برلين سنة ١٨٧٨ ، ص ٥ .

(٣) Palestine, A Study of Jewish, Arab and British Policies, Op. Cit. p. 6

بالمرستون أهداف تلك القنصلية فى رسائلة المتتابعة وقتئذ (من سنة ١٨٤٠ — ١٨٤١) إلى القنصل وليم يونج ، وإلى سفيره فى القسطنطينية بنسنبى ، وإلى عامة قناصل بريطانيا فى غرب آسيا ، بتأمين حماية اليهود وإرسال التقارير عنهم ، لأن الوقت قد حان لتحقيق عودتهم إلى فلسطين حتى يصبحوا سداً فى وجه أية رغبات شريرة لمحمد على أو خليفته فى المستقبل(١) .

واشتدت الحملة الصحفية لتأييد هذه السياسة إثر الضجة التى اصطنعها يهود دمشق فى فبراير سنة ١٨٤٠ ، لأن احتكاكاً قد حدث بينهم وبين العرب نتيجة اختفاء قس كيوشى واعتراف حلاق يهودى بأن اليهود قتلوا القس واستحلوا دمه فى عيد الفصح . فقد اندفع يهود أوروبا والولايات المتحدة إلى ميدان هذه الضجة ، واندفعت إثرهم الصحافة الأوروبية ما بين مؤيدة ومعارضة ، وأصبح لها آثارها على ميدان الصراع بين فرنسا وانجلترا حول الوجود المصرى فى الشام وفلسطين . وطالبت النمسا محمد على بإجراء محاكمة عادلة أمام قناصل النمسا وبروسيا وروسيا وانجلترا ، بينما عارضت ذلك فرنسا خوفاً من تعزيز تدخل هذه الدول فى الشرق الأدنى والأراضى المقدسة . وما لبث الانجليز بين يهود ومسيحيين إنجيليين أن دعوا إلى اجتماع فى لندن لتأييد الشعور بالمسئولية المشتركة تجاه الشعب اليهودى وأمانيه فى العودة إلى فلسطين ، وقرروا إرسال بعثة تحقيق يهودى إلى الشرق الأدنى برئاسة السير موسى مونتيفور وأدولف كريميه ، زعيمى اليهود فى انجلترا وفرنسا(٢) .

وقد وصل مبعوثا اليهود إلى الإسكندرية فى أغسطس سنة ١٨٤٠ حيث قابلا محمد على ، واستمع إلى مطالبهما فى قيامهما بزيارة دمشق من أجل إجراء تحقيق فى الأحداث أو تشكيل محكمة من قناصل الدول . وعلى الرغم مما حمل المبعوثان من توصيات لتعزيز مهمتهما من كل من ميترنخ وبالمرستون ، فقد رفض محمد على مطالبهما بناء على نصيحة سفير فرنسا . ثم عاد وقبل الإفراج

---

(١) أنظر فى هذا الشأن ، دكتور أنيس صايغ ، الهاشميون وقضية فلسطين ، بيروت ١٩٦٦ ص ١٤ — ١٦ .

(٢) المرجع السابق ، و Palestine, A Study of Jewish, Arab, and British Polices, Op. Cit., p. 4

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES

عن اليهود المقبوض عليهم فى ٢٨ أغسطس سنة ١٨٤٠ أمام توسلات كريميه وتوسط قناصل الدول التسع(١) . وقد رحل المبعوثان إثر ذلك إلى الآستانة ، حيث مكث موسى منتيفور طويلا إلى الوقت الذى استرد فيه الباب العالى سوريا وفلسطين ، محاولا شراء رضا الباب العالى لتأسيس مستعمرات يهودية فى فلسطين . غير أن السلطان عبد الحميد لم يسمح إلا بإصدار فرمان رمضان سنة ١٢٥٦ هجرية (١٨٤٠ م) فى صدد الاعتراف لليهود بحق ممارسة شعائرهم الدينية ومساواتهم مع غيرهم من مواطنى السلطنة فى الحقوق المقررة بخط خلجانة(١) .

وهكذا فشلت هذه المهمة للمبعوثين اليهوديين ، ولكنها أدت فى نفس الوقت إلى إثارة مشاعر اليهود وتأكيد تضامنهم كعامل رئيسى على طريق الحركة الصهيونية السياسية(٢) .

٦ — وفى غضون فترة شق قناة السويس وافتتاحها كطريق عالمى للملاحة الدولية ازداد النشاط البريطانى الرسمى وغير الرسمى حول الأراضى المقدسة .

فمن ناحية ، ما لبثت السياسة البريطانية التى كانت تقوم على عهد بالمرستون على مبدأ أساسى هو المحافظة على الدولة العثمانية ، أن أدركت فى أخريات القرن التاسع عشر أن الدفاع عن هذه الدولة الهرمة قد غدا عملا مستحيلا ، وأن الإصلاح الداخلى فى أنظمتها ، أو بضغط من الخارج ، قد أصبح يعنى صراعاً واسع النطاق سوف يؤدى إلى زوالها . وأصبح يلوح فى أعين الانجليز أن الوقوف فى وجه روسيا وأطماعها فى بلاد الرجل المريض ، يمكن أن يتحقق بمساعدة الشعوب البلقانية على الاستقلال والتحرر لتكون حاجزاً أمنع وأقوى فى وجه الخطر الروسى واقترابه من المضايق التركية . وكعلامة لهذه السياسة الديناميكية

---

(١) Fargeon, Op. Cit., p. 163.

(٢) Ibid, p. 164 :

زار موسى منتيفور الآستانة وفلسطين بعد ذلك مرة أخرى سنة ١٨٥٥ حيث استطاع أن يحصل بمساعدة سفير انجلترا على الفرمان المطلوب لشراء أراض فيها والقدس حيث أقيمت أقدم المستعمرات اليهودية — دكتور أنيس الصايغ ، المرجع السابق ، ص ١٨ .

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES

الجديدة التى أوضح أسسها دزرائيلى ولايارد سفير بريطانيا فى الآستانة ؛ والتى أصبح على اللورد سالسبرى وزير الخارجية الجديد أن يقوم بتنفيذها ؛ أخذ العسكريون البريطانيون يلوحون بوجوب احتلال رودس وكريت وأزمير والإسكندرية(١). وذهب اللورد سالسبرى إلى أبعد من ذلك حين تبنى من حيث المبدأ سنة ١٨٩٨ فكرة لتقسيم الإمبراطورية العثمانية، تجعل لروسيا حقاً فى مناطق نفوذها الجغرافية كالبحر الأسود وشمال وادى الفرات، بينما تأخذ بريطانيا آسيا الصغرى وشبه جزيرة العرب وجنوب وادى الفرات ابتداء من بغداد . وكانت بريطانيا قد مهدت من قبل، أثناء مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨، إلى مساومة فرنسا بأن تترك لها حرية العمل فى تونس، نظير أن تترك لها تلك حرية العمل فى مصر وشرق البحر المتوسط ، ولا سيما بعد أن اشترت غالبية أسهم الشركة العالمية لقناة السويس سنة ١٨٧٥ ، ثم احتلت قبرص سنة ١٨٧٨ ، ومن بعدها مصر سنة ١٨٨٢ . وهكذا أصبحت بريطانيا التى تبنت فى نفس الوقت الجهود الصهيونية لإنشاء المستعمرات اليهودية والوطن اليهودى فى فلسطين ، هى القائمة على تنفيذ السياسة التدريجية التى أشار إليها نيقولا الأول فى تصفية الإمبراطورية العثمانية .

ومن ناحية أخرى ، توالت خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر كتابات جديدة تشرح أهمية الأراضى المقدسة الاستراتيجية والسياسية فى ضوء الصراع الدولى حولها . وتعددت مشروعات إعادة توطين اليهود فى فلسطين من انجليز وفرنسيين ، وإيطاليين وألمان وروس وأمريكان فى بعض الأحيان ، سواء فى ذلك أكانوا بروتستانت أو كاثوليك أم أطهاراً . فقد استغلت فتنة دمشق سنة ١٨٤٠ ، كما استغلت من بعد آثار مقتل القيصر اسكندر الثانى سنة ١٨٨١ وهجرة اليهود من روسيا ، وقضية دريفوس سنة ١٨٩٤ ، التى كان لها رد الفعل المباشر على هرزل فى إثارة الرأى العام الأوروبى من أجل تحقيق الوطن اليهودى فى فلسطين .

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES

(١) من الملاحظ أنه قد تأسست نتيجة لهذه الخطوة جمعية الاليانس الإسرائيلى العالمى برئاسة كريميه سنة ١٨٦٠ ، كما أنشأ الاتحاد اليهودى الإنجليزى (١٨٧١ — ١٨٧٣) عدة مدارس بالقدس وبغداد .

فقد دعا الفرنسى ارنست لهاران سنة ١٨٤٨ إلى إحياء الدولة اليهودية القديمة فى فلسطين كوسيلة لاستقرار الوضع فى منطقة الشرق الأدنى . وأعقبه فى هذا الاتجاه اليهودى الفرنسى جوزيف سلفادور الذى اقترح صراحة فى كتابه « باريس ، روما والقدس » ، تحقيق العطف المسيحى على اليهود المضطهدين والمهاجرين بإنشاء دولة لهم فى الجليل وأرض كنعان القديمة . وأضاف فى هذا الصدد أنه « من المحقق أن الأهمية السياسية لأورشليم وأرض إسرائيل لن تعود سيرتها القديمة إلا بجهود هذه العبقرية الإنسانية التى تقطع برزخ السويس من أجل خلط مياه البحر الأحمر مع البحر المتوسط(١) .

بيد أن المشروعات البريطانية فى هذا الشأن كانت أكثر عدداً ، وأكثر وضوحاً وإفاضة فى التعبير عن الأهمية السياسية والاستراتيجية للأراضى المقدسة . فقد أرسل الكولونيل تشرشل قنصل بريطانيا فى بيروت على عهد محمد على ، يقترح على مجلس ممثلى اليهود فى انجلترا تأسيس وطن قومى لهم فى فلسطين من أجل وضع حد للأوضاع غير المستقرة حينئذ(٢) . وتردد لدى الكولونيل جورج جاولر حاكم جنوب استراليا السابق رأى مماثل نشره سنة ١٨٤٥ بأن استقرار الأوضاع فى آسيا العثمانية لن يتحقق إلا بإنشاء مستعمرات لليهود فى المنطقة (٣) . وتوالت إثر ذلك كتابات إدوارد كازليت (١٨٢٧ — ١٨٨٣) ولورنس أوليفانت (١٨٢٩ — ١٨٨٨) وايرل شافتسترى (١٨٠١ — ١٨٨٥) . وقد حركت هؤلاء فى بادىء الأمر أحداث اضطهاد اليهود ، ودفعتهم العقيدة الإنجيلية إلى مماثلتهم . ولكن سرعان مانضجت عندهم الفكرة السياسية لقيام الدولة اليهودية ، وأصبحت لديهم صالحاً بريطانياً فى الدرجة الأولى . وفى هذا الصدد كتب إيرل شافتسبرى مقالا عن الصهيونية سنة ١٨٧٦ أبرز فيه دور الأراضى المقدسة مستقبلا فى التجارة العالمية ، وأكد أهمية العنصر اليهودى فى جعلها مركزاً لهذه التجارة . ثم أضاف « ومما لا شك فيه أن استيلاء أى من منافسى انجلترا ، فرنسا أو روسيا ، على سورياً سيكون ضربة

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES

(١) Palestine, A Study of Jewish, Arab and British Policies, Op. Cit., p. 5.

(٢) أنيس صايغ ، المرجع السابق ، ص ١٦ .

(٣) Palestine, Op. Cit., p. 5.

قاضية لانجلترا . فإمبراطوريتها التى تمتد من كندا فى الغرب إلى كلكتا واستراليا فى الجنوب الشرقى ، سوف تنفصم عراها وتنقسم قسمين . . ومن ثم يجب على بريطانيا أن تبقى على سوريا لنفسها ، وأن يصبح على بريطانيا بدافع العوامل السياسية أن تؤيد اليهود وتؤكد قوميتهم كلما سنحت بذلك الفرصة لعودتهم ، عن طريق إقامة دولتهم القديمة . فانجلترا هى أكبر دولة تجارية وبحرية فى العالم . ومن ثم فإنه يقع على عاتقها مهمة تأييد توطين اليهود فى فلسطين(١)... » .

٧ — ساءت العلاقات بين انجلترا والدولة العثمانية إثر احتلال انجلترا لمصر ووضوح أغراضها التوسعية على حساب الدولة العثمانية . وأدى حلول ألمانيا محل انجلترا وتوثق علاقاتها مع الباب العالى ، أن صبحت انجلترا تتوجس ريبة وخيفة من المشروعات الألمانية التى أيدتها فى أول الأمر ، كخط سكة حديد بغداد وتوسع الرأسمالية الجرمانية فى البلاد العثمانية ، واهتمام الحكومة الألمانية بتقوية أسطولها التجارى والحربى حتى أصبحت بريطانيا تخشى على سيادتها البحرية . ولعبت مشروعات القيصر فى تأييد حركة تبشيرية واسعة النطاق فى القدس والأراضى المقدسة ، وهجوم أفواج رجال الدين الألمان واليهود الألمان على فلسطين لمعاضدة الاستعمار الألمانى هناك ، وتأسيس المستعمرات اليهودية الألمانية بفضل مساعى الاتحاد الإسرائيلى العالمى واتصالات هرزل وتعضيد الحكومة الألمانية ، ثم زيارة القيصر للأراضى المقدسة سنة ١٨٩٨ كمظاهرة سياسية فى التعبير عن النفوذ الألمانى فى الشرق الأدنى ، لعب كل ذلك دوره فى تأكيد مخاوف انجلترا من الوجود الألمانى فى الأراضى المقدسة وخليج العقبة فى مواجهة الوجود البريطانى على قناة السويس . وكانت انجلترا قد فكرت فى أعقاب فتنة الدروز والمارون سنة ١٨٦٠ ، فى إنشاء دولة مستقلة من القبائل الدرزية تحت حمايتها فى فلسطين ، وأن تشق فى مواجهة قناة السويس التى يسيطر عليها الفرنسيون قناة ما بين العقبة وحيفا ، وأصبحت تخشى بمرور الوقت أن تقوم ألمانيا بنفس الدور عن طريق تأسيسها الوطن اليهودى فى فلسطين وبفضل علاقتها الوثيقة بالدولة العثمانية(٢) .

---

(١) Nahum Sokolow, History of Zionism, Vol. 1, 1, 206.

(٢) D'Istra, Op. Cit. pp. 20-21.

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES
معهد البحوث والدراسات العربية
اتحاد الجامعات العربية

ولهذا فما لبثت انجلترا عند احتلالها لمصر سنة ١٨٨٢ أن رمت ببصرها عبر سيناء ، وأكدت احتكار مصر التقليدى لحماية مدخلها الشرقى ، وضمان وجودها على خليج العقبة كحارسة لمدخل البحر الأحمر فى ذراعيه ، خليج السويس وخليج العقبة .

ولعب موضوع الحدود الشرقية لمصر دوراً له أهميته فى تاريخ المسألة الشرقية ، وتاريخ الصراع بين انجلترا ومصر من جانب ، وبين الدولة العلية العثمانية وألمانيا من جانب آخر ، حتى اتصل الأمر بأهمية المحافظة على قناة السويس عبر سيناء كلها ، وبأهمية المحافظة على خليج العقبة كطريق تاريخى المرور والحج إلى الأماكن الإسلامية المقدسة . فباحتلال انجلترا لمصر سنة ١٨٨٢ لم يعد من الممكن أن تترك الحدود الشرقية لمصر كما كانت دون أن تعين تعييناً واضحاً ، سيما وأن السلطان كان يسمح بأن يتجاوز نفوذ ولاته فى مصر حدود سيناء إلى قلاع الحجاز عندما كانت مصر تابعة للدولة العلية(١). ولكن مخاوف تركيا قد أخذت فى الظهور مع وجود المحتلين الانجليز فى سيناء وعلى خليج العقبة، فضلا عن مطامعهم فى الشام والحجاز. وأصبحت الحساسية التقليدية لدى الباب العالى من تدخل الأجانب فى المناطق المجاورة للحجاز ، والتى تقع على طريقها البرى أو عبر خليج العقبة والبحر الأحمر ، تفوق حد الوصف . فالقانون الذى يتيح للأجانب تملك أراض فى الدولة العثمانية يحرم ذلك فى أرض الحجاز ، كما يحرم على غير المسلمين الإقامة فيها . وقد أكد هذا الخوف من جانب الدولة العلية أن الثورة التى قامت حينئذ ضد تركيا فى اليمن قد عزيت إلى التدخل الإنجليزى، كما قامت فى نفس الوقت محاولات من جانب اليهودى الألمانى فريدمان لإنشاء مستعمرات لليهود المطرودين من روسيا على الشاطىء الشرقى لخليج العقبة . وصرح الصدر الأعظم مختار باشا وقتئذ أن المسيح الجديد لليهود المتطلعين إلى بيت المقدس ، قد عاد إلى الظهور فى شخص فريدمان(٢).

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES

---

(١) انظر فى تفصيل ذلك ، دكتور عباس عمار ، المدخل الشرقى لمصر أو أهمية جزيرة سيناء كطريق للمواصلات ومعبر للهجرات البشرية ، ١٩٤٦ ، الملحق الأول .

(٢) Cromer, Modern Egypt, 1908, Vol. 2, p. 268

وهكذا حاولت الدولة العثمانية فى فرمان تولية الخديوى عباس حلمى فى ٢٧ مارس سنة ١٨٩٢ أن تنزع من مصر حكم سيناء لتضمها إلى ولاية الحجاز ، خلافاً للفرامانات السابقة وآخرها فرمان تولية الخديوى توفيق فى ٧ أغسطس سنة ١٨٧٩ ، والذى يعطيه الحق فى حكم كل جهات سيناء حتى قلاع الحجاز ؛ فقد جاء فى صدد حدود مصر فى فرمان ٧ أغسطس سنة ١٨٧٩ :

"tel qu'il se trouve formé par ses anciennes limites et en comprenant les territoires qui y ont été annexées"

ولكن الحكومة البريطانية التى حرصت على استبعاد وجود الباب العالى وحلفائه قرب قناة السويس ، كما حرصت على وجود نفوذها على خليج العقبة وقرب الأراضى المقدسة ، كانت متيقظة لهذا الأمر ، فاضطرت انجلترا الباب العالى إثر مفاوضات حاذقة ونشيطة بالقسطنطينية ، إلى أن يلحق بفرمان ولاية الخديوى عباس حلمى ما يؤكد حق مصر فى كل جهات سيناء فى ٨ أبريل سنة ١٨٩٢ . ولكن الدولة العثمانية عادت — ومن ورائها ألمانيا التى زادت من تدخلها السيسيولوجى فى الدولة العثمانية — تحاول ضمان منطقة لها فى شبه جزيرة سيناء ، لتوقف مطامع بريطانيا من جهة ، ولتقترب من منطقة نفوذها الحيوية فى قناة السويس من جهة أخرى . ودفعت ألمانيا الدولة العثمانية إلى القيام بعمل عسكرى بناء على نصيحتها(١) ، فاحتلت القوات العثمانية قلعة « طابا » المصرية على خليج العقبة سنة ١٩٠٥ ، وثارت انجلترا على ذلك ، وحتمت تعيين الحدود الشرقية لمصر على أساس تصحيح ٨ أبريل سنة ١٨٩٢ ، وعلى قاعدة خط يمتد فى اتجاه مستقيم تقريباً إلى الجنوب الشرقى من رفح حتى رأس خليج العقبة . وقامت لجنة مشتركة بتعيين الحدود الحالية فى الاتفاقية التى وقع عليها وتبودلت فى رفح فى أول أكتوبر سنة ١٩٠٦(٢) .

٨ — وزاد فى مخاوف بريطانيا من الوجود الألمانى فى فلسطين وتحالفه مع الصهيونية الدور الذى لعبه بترول الشرق الأوسط فى هذا الصراع ، وهو دور

---

(١) D'Istria, Op. Cit., p. 45.

(٢) عباس عمار ، المدخل الشرقى لمصر ، الملحق الأول .

INSTITUT D'ETUDES ARABES ET DE HAUTES ETUDES
معهد الدراسات العربية العالية
عضو اتحاد الجامعات العربية

أكثر أهمية مما كان يظن له فى ذلك الوقت . فقد ارتطمت سياسة ألمانيا بإنشاء خط حديد بغداد حتى الكويت والخليج العربى ، وفرع آخر له يمتد عبر الأراضى المقدسة إلى الحجاز والبحر الأحمر ، كما ارتطمت سياستها فى إنشاء المستعمرات الصهيونية فى فلسطين ؛ وعلى خليج العقبة تحت الحماية الألمانية ، من أجل تقوية نفوذ الرأسمالية الجرمانية وجنودها فى الحرب المنتظرة لحسابها ؛ ارتطمت بالسياسة البريطانية فى الحفاظ على طرق مواصلاتها العالمية وسيطرتها البحرية ، ولا سيما بعد ظهور البترول فى الشرق الأوسط ابتداء من سنة ١٨٨٢ فى إيران .

فنتيجة لظهور النفط وإمكان الاستعاضة به عن الفحم كوقود يزيد من قوة البحرية البريطانية بمقدار ٣٣٪ ويجعل بالاستطاعة تجهيز الأسطول بالوقود فى عرض البحر خاضت الرأسمالية البريطانية بزعامة اللورد فيشر وونستون تشرشل وهنرى ديترونك — الهولندى الجنسية أصلا — معركة للسيطرة على النفط فى العالم ، والشرق الأوسط خاصة . ففى سنة ١٩٠١ استطاعت حملة الرأسماليين الانجليز أن تنجح فى إيران عندما حصل وليم دارسى على امتياز التنقيب عن البترول واستخراجه من مظفر شاه ، وتأسست شركة البترول الانجليزية الفارسية سنة ١٩٠٩(١) .

وفى نفس الوقت ظهرت الدلائل على وجود البترول فى العراق ، وأن هناك بحيرة من البترول تمتد من سواحل بحر الخزر فى الشمال حتى تغطى أرض العراق . وعلى الرغم من أن السلطان عبد الحميد قد أصدر فرمانا شاهانيا سنة ١٨٨٨ بحفظ حق التنقيب واستخراج البترول أسوة بغيره من المعادن فى الدولة العثمانية لخزانتها ، فما لبث الخبراء الألمان أن حصلوا على تصريح بالتنقيب عن النفط فى العراق سنة ١٩٠١ ، ثم حصل البنك الألمانى سنة ١٩٠٤ على إذن بالقيام بأعمال مسح حقول النفط فى وادى الرافدين .

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES

(١) على طريق الهند ، المرجع السابق ، ص ١٤٤ ، ١٦٨ — ١٨٤ .
Jacque Bergier and Bernard Thomas, La Guerre Secrete du Pétrole, Denoel, 1968, pp. 45-47.

وبينما كانت البحرية البريطانية قلقة من أجل النفط ، والرأسمالية البريطانية تغذ فى السير للسيطرة على ينابيع النفط وتأكيد سيادتها البحرية فى طرق المواصلات العالمية ، كانت الرأسمالية الألمانية تواصل سيرها نحو ينابيع النفط فى الموصل ، وترمى بعصاها فى جزر فرسان فى جنوب البحر الأحمر (قرب جيزان والحدود اليمنية السعودية) وعلى خليج العقبة فى شماله عن طريق التحالف مع الصهيونية وإنشاء المستعمرات اليهودية الألمانية .

وقد وقفت الرأسمالية البريطانية فى وجه هذا التهديد لمصالحها فى البترول ، وطالبت السلطان عبدالحميد بنفس امتيازات البنك الألمانى فى التنقيب عن بترول العراق ، وقامت إثر انقلاب سنة ١٩٠٨ بدور رئيسى فى مفاوضات النفط وفى المساومة مع ديترونك من جانب وألمانيا من جانب آخر ، حتى أمكن التوصل إلى اتفاق سنة ١٩١٤ من أجل تكوين شركة البترول التركية . وتوزعت أسهم هذه الشركة كالآتى : ٥٠٪ للبنك الوطنى التركى مالبثت أن انتقلت إلى شركة البترول الإنجليزية الفارسية ، و٢٥٪ لشركة شل الهولندية ممثلة فى ديترونك الذى مالبث أن سار مسار السياسة البريطانية فى مناوأة جون روكفلر وانقلب على ألمانيا إثر ظهور بوادر هزيمتها فى الحرب ، و٢٥٪ للبنك الألمانى صودرت لصالح بريطانيا إثر دخول قواتها العراق سنة ١٩١٥(١) .

ولم يغب عن أعين الإنجليز بطبيعة الحال أهمية التحالف الألمانى الصهيونى وتهديد المصالح البحرية لبريطانيا فى البحر الأحمر ، فعمل ساستها على فصم عرى هذا التحالف بكافة الوسائل ، حتى اقترحت انجلترا — فى المفاوضات التى دارت سنة ١٩٠٢ بين وزير مستعمراتها جوزيف تشمبرلين من جانب ، واللورد روتشيلد ثم هرزل من جانب آخر لدى افتتاح المؤتمر الصهيونى السادس سنة ١٩٠٣ — إنشاء الوطن القومى اليهودى فى أوغنده أو قبرص أو فى صحراء العريش على حدود مصر الشرقية . وقد رفض المؤتمر الصهيونى السادس فكرة أوغنده نتيجة معارضة الأغلبية بزعامة وايزمان . كذلك رفضت فكرة قبرص خوفاً من معارضة الترك واليونان سوية . أما فكرة العريش فقد قبلها هرزل ، ورحل من أجلها لمقابلة اللورد كرومر

(١) على طريق الهند ، المرجع السابق ، ص ١٨١ .

فى القاهرة حاملا فى هذا الصدد توصيات لاندسدون وزير الخارجية البريطانية كذلك زارت بعثة يهودية منطقة العريش سنة ١٩٠٣ ، وجاءت إلى القاهرة فى ربيع هذا العام تحمل موافقة اليهود على إقامة مستعمرات لهم فى سيناء بجوار أرض التيه القديمة ، وعلى مفرق الطريق بين آسيا وأفريقيا . ولكن الحكومة المصرية ، فى اتصال بين اللورد كرومر والخديوى عباس حلمى ، ما لبثت أن رفضت المشروع متذرعة بعدم إمكانية رى منطقة العريش بمياه النيل التى لاتكفى لزراعة وادى مصر . والحقيقة أن كلا من اللورد كرومر والحكومة المصرية قد خشيا غضب الباب العالى ، وعملا على عدم إثارته فى هذا الشأن(١) .

٩ — منذ هذا التاريخ وقد قامت حركة صهيونية استراتيجية تقودها مصالح القوى الكبرى، وتربط بين أهدافها فى استعمار فلسطين وبين الوجود الاستعمارى فى قناة السويس وسيناء وخليج العقبة ، على طرق المواصلات العالمية وشرايين مراكز النفط ذات الأهمية . ومنذ هذا التاريخ وقد نجحت الصهيونية فى إقناع ساسة الدول الكبرى بجوارها الاستراتيجى لهذه البقاع الحيوية خدمة لمصالح ألمانيا أو بريطانيا ، وكذلك الولايات المتحدة الأمريكية فيما بعد . فقد أصبح الوجود الصهيونى فى نظر هذه الدول ضرورة حيوية للسيطرة على هذه المنطقة واحتلالها من النواحى الإقليمية والسياسية والتجارية والصناعية على حد سواء . وأصبحت الجغرافية السياسية والاقتصادية هى التى تقود تحالف الصهيونية مع هذه القوى الكبرى ، لا نبوءات التوراة ، كما أشرنا من قبل .

وقد شهدت الفترة السابقة على قيام الحرب العالمية الأولى صراعاً عنيفاً بين انجلترا وألمانيا فى هذا السبيل . فما أن فقدت ألمانيا معركة البترول ؛ وفكرة غزو فلسطين عن طريق المستعمرات اليهودية ، كما خسرت هى وتركيا معركة الاقتراب من قناة السويس ، وفشلت فى غلق البحر الأحمر فى شماله وجنوبه فى وجه البحرية البريطانية ؛ حتى لجأت وتركيا إلى دخول الحرب العالمية الأولى . وفى غمار هذه الحرب واصل الإمبراطور غليوم الثانى تشجيع التحالف مع

---

(١) أنيس صايغ ، المرجع السابق ، ص ٢٢ .
و :
Soustelle, Op. Cit., pp. 41-42.
Fargeon, Op. Cit., pp. 174-175.

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES

الصهيونيـة وترسيخ دعائمها . فادعى تحرير يهود بولندا والسماح لهم باستخدام اليديش لغة فى القراءة والكتابة ، وزار معبد اليهود فى لودز ، وافتتح الجامعة اليهودية فى ولنا(١) .

وعلى الرغم من أن الثقافة الألمانيـة قد أصبحت طابع جميع اليهود المعادين للقيصرية الروسية ، والمهاجرين إلى أوروبا الغربية والولايات المتحدة ، إعجاباً بمظاهر التسامح التى أولتها إياهم ألمانيا الإمبراطورية ، إلا أن الحركة الصهيونية بحثاً عن مصالحها الذاتية ، مالبثت أن قلبت ظهر المجن للامبراطور غليوم الثانى منذ خريف سنة ١٩١٧ .

فمن ناحيـة أصبح الحلفاء يحسون بحاجتهم إلى الحركة الصهيونيـة خلف خطوط دول الوسط خلال سنة ١٩١٧ ، وهى السنة التى أصبحت فيها جيوش الحلفاء تقف على مفرق الطريق بين الهزيمة والنصر . فعلى الرغم من دخول الولايات المتحدة الحرب إلى جانب الحلفاء ، فقد ظلت كفة دول الوسط هى الراجحة إزاء الدور الذى لعبته الغواصات الألمانية فى إغراق أساطيل الحلفاء ، وهزيمة الجيش الفرنسى فى معركة فردون ، ثم هزيمة الجيش الإيطـالى فى كابوريتو ، وقيام الثورة الروسية فى مارس ١٩١٧ ، وثورة أكتوبر التى سرعان مادخل قادتها فى مفاوضات الصلح مع ألمانيا . وانضمت أعداد كبيرة من يهود أوروبا الوسطى وروسيا القديمة إلى الثورة البلشفية الجديدة وإعلاناتها فى وقف الحرب الاستعمارية الدائرة ، بينما أخذ الإمبراطور غليوم الثانى يعمل على استمالة اليهود إلى جانبـه بتحضير مشروع بإنشاء الوطن القومى اليهودى فى فلسطين .

ومن ناحيـة أخرى ، تلفت الصهيونيون من حولهم ، ليجدوا الجيش البريطانى والفيلق اليهودى الذى تكون فى الاسكندرية من اليهود الذين اضطهدهم جمال باشا فى الشام ، قد دخل القدس بقيادة اللنبى فى ٩ سبتمبر سنة ١٩١٧(١) . وأخذ الجيش الألمانى يقاسى شتاء مريراً ينذر بهزيمته فى أخريات سنة ١٩١٧ . ولم يكن هناك من بد أن تنقل الحركة الصهيونية مركزها إلى لندن ، وأن تقبل

---

(١) D'Istria, Op. Cit., p. 49.

التفاوض السريع مع بريطانيا لصدور وعد بلفور بإنشاء الوطن القومى اليهودى فى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ .

١٠ — وليس لنا أن نتطرق كثيراً إلى الظروف التى أحاطت بصدور هـذا الوعد، وإنما يكفى أن نعتمد فى هذا الصدد على ما قاله مستشار وزارة الخارجية البريطانية فى ذلك الوقت « سير تشارلز وبستر » ، حيث يخلص فى تحليل طويل لى القول بأنه : « إذا كانت المصالح الاستراتيجية لبريطانيا قد قادتها إلى التمركز فى فلسطين ، فقد أصبحت مشاركتها لليهود أمراً يساعدها على تحقيق ذلك . فضلا عما يكون لهذا من تأثير على الرأى العام اليهودى المؤيد لدول الوسط ، أثناء الحرب ، ومستقبل الخطط البريطانية فى أوروبا والشرق الأوسط بعد الحرب فقد كنا بطبيعة الحال نملك ناصية الأمور فى مصر ، ولكن أحـداً لم يكن يعلم مصير هذه الوعود التى أعطيناها فى الماضى فى صدد الجلاء عنها . ولهذا أصبح الوجود البريطانى فى فلسطين على الضفة الأخرى من قناة السويس من الأهمية لنا بمكان فى المستقبل »(٢) .

* * *

(١) ويفل، الحملات الحربية بفلسطين ، الترجمة العربية ، القاهرة ، ١٩٣٨ ، ص ١٥٦ .
و : Fargeon, Op. Cit., P. 177.

(٢) Sir Charles Webester, Op. Cit., p. 124.

معهد البحوث والدراسات العربية
INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES
عضو اتحاد الجامعات العربية